المجلد:16 العدد:2 السنة: 2021 صفحات المقال: 14 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

سؤال الوجود عند صدر الدين الشيرازي

The Question of Existence According to Sadr al-Din al-Shirazi

الدكتور حلوز جيلالي
مختبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها – جامعة تلمسان – الجزائر
Djiali.kadi75@gmail.com

تاريخ الإرسال: 29/07/2021 **تاريخ القبول:01/10/2021** **تاريخ النشر: 30/12/2021**

ملخص:
مسألة الوجود من بين المسائل التي ظلت مطروحة ردحا طويلا من الزمن، ولا زالت تطرح وبشكل واسع في مختلف الفلسفات المعاصرة بشكل متجدد، على اعتبار أن الإنسان جزء من هذا الكون الذي لا نعلم عنه إلا اليسير، كونها أسئلة وجودية تستدعي تمكين الإنسان وتحديد موقعه وماهيته ضمن الخلائق أجمعين، لقد ظل الإنسان يطرح أسئلة تتمحور حول أصل هذا الكون بداياته و مآلاته مصائره ، وتبعا لذلك تشكلت عديد الآراء و التصورات و التيارات الفكرية الفلسفية عبر التاريخ البشري تاركتا وراءها مفاهيم عن الوجود ومراتبه و حقيقته
الكلمات المفتاحية: الوجود؛ الأنطولوجيا؛العرفان؛ الله؛الحكمة المتعالية؛ وحدة الوجود

Abstract
The issue of existence is among the issues that have been raised for a long period of time, and are still being raised in a renewed manner in various contemporary philosophies, given that man is part of this universe that we know little about, being existential questions that require the empowerment of man and determining his position and identity within All creatures, man has been asking questions centered on the origin of this universe, its beginning, end and destinies.
Keywords: existence; ontology cognition God, transcendent wisdom; Pantheism

1

1- مقدمة:

تعد مسألة الوجود من بين المسائل التي ظلت مطروحة ردحا طويلا من الزمن، ولا زالت تطرح وبشكل واسع في مختلف الفلسفات المعاصرة بشكل متجدد، على اعتبار أن الإنسان جزء من هذا الكون الذي لا نعلم عنه إلا اليسير، كونها أسئلة وجودية تستدعي تمكين الإنسان وتحديد موقعه وماهيته ضمن الخلائق أجمعين، لقد ظل الإنسان يطرح أسئلة تتمحور حول أصل هذا

المجلد:16 العدد:2 السنة: 2021 صفحات المقال: 14 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الكون بداياته و مآلاته مصائره ، وتبعا لذلك تشكلت عديد الآراء و التصورات و التيارات الفكرية الفلسفية عبر التاريخ البشري تاركتا وراءها مفاهيم عن الوجود ومراتبه و حقيقته، انطلاقا من الفكر اليوناني القديم الذي سعى إلى توجيه الفكر البشري وجهة البحث في الوجود الخارجي من خلال الاهتمام بالطبيعة و البحث عن العلل الأولى لمختلف الظواهر ، وعلى رأسهم الفلاسفة الطبيعيون أمثال أنكسمندرس و أنكسيمنس و بروتاغوراس وغيرهم، وصولا إلى سقراط و أفلاطون و أرسطو و المدارس الفلسفية المتأخرة التي تمحورت فلسفاتهم حول مسألة الوجود، لم يكن ذلك حكرا على فلاسفة اليونان، لا بل برع المسلمون هم أيضا في البحث في هذه المسألة و جعلوا منها قضية أساسية انشدت إليها أبحاثهم و أدلوا فيها بدلائهم وقدموا فيها تصوراتهم وألفوا مصنفاتهم واختلفت توجهاتهم وبرز فيها الكندي و الماوردي و الفارابي و ابن سينا و الغزالي وغيرهم، ومن بين الإضافات التي كان لها حضورا لا يقل أهمية في التاريخ الفلسفي الإسلامي و حتى الإنساني فيما يخص مسألة الوجود ما قدمه صدر الدين الشيرازي الذي برع في العديد من المباحث على غرار مبحث الوجود الذي كان محل اهتمام خاص و جدير بالذكر في مقامنا هذا، من هو صدر الدين الشيرازي؟ كيف كانت رؤيته لمبحث الوجود؟ كيف تصور ماهية الوجود؟

2- نبذة عن حياة الشيرازي:

ملا صدرا محمد بن إبراهيم القوامي الشيرازي(980ه-1050ه/1572م-1640م)، من الفلاسفة الإسلاميين الكبار في القرن الحادي عشر الهجري. وهو خاتمة حكماء الشيعة جمع بين فرعي المعرفة النظري والعملي. ينسب إليه نهج الجمع بين الفلسفة والعرفان والذي يسمى بالحكمة المتعالية. كان طرحه متطورا جدا وفاق حدود عصره مما صعب على معاصريه أن يقبلوه فلاقى من معاصريه صنوف المضايقات بسبب ذلك فكَفر ورمي بأبشع التهم حتى طرد من بلدته، فما كان منه إلا أن هجر القوم إلى القرى النائية منقطعا إلى الرياضة الروحية حتى تجلت له العلوم الباطنية فعاد على البشرية بحكمته المتعالية. يعرف أيضا بـ صدر المتألهين.

"يعود الفضل الى الشيرازي في التأسيس الفلسفي الفعلي لهذه المدرسة تحت مسمى مدرسة الحكمة المتعالية، التي تعني من بين ما تعنيه تلك الفلسفة التي تجعل غايتها الاهتمام بأشرف العلوم والمعارف وهي المتعلقة بمباحث الإلهيات سواء بالمعنى الأعم أو بالمعنى الأخص، وهذا ما يعني أن غاية الفلسفة في الحكمة المتعالية لم تكن تبتعد كثير عن الغاية التي دأبت عليها الفلسفات السابقة، لكنها برغم ذلك كانت لها ميزاتها الفريدة ومسائلها الفلسفية المستجدة، ومناهجها البحثية الخاصة" (رزيق رابح ، بن عومر رزقي، 2018، ص 304).

عاش الشيرازي في زمن طغت فيه الروح الإشراقية، والتي كانت من أبرز مميزات مجتمعه، وقد انعكست هذه الظاهرة في نفسه، وبرزت واضحة من بين آرائه وأفكاره ومؤلفاته، وكانت سبباً للحملات الشديدة التي شنّها عليه رجال الدين، الذين كانوا يتلقون منه ردوداً قاسية أيضاً، إذ كان يقول: "إن أكثرهم أشقى من الجهلاء".

EISSN: 2006-6596 ISSN:1111-5203 صفحات المقال: 14 السنة: 2021 العدد:2 المجلد:16

وبسبب حملات رجال الدين عليه، عاملته الجماهير بجفاء، ولم يُعط حقه من الاحترام، ولم يقدّر التقدير الذي يستحقّه، لذا اعتزل الناس سنوات طويلة بسبب ذلك الجفاء، ولم يلق التقدير إلا بعد موته، كمعظم العباقرة والمفكّرين العظام .

حتى قال فيه السيّد محمّد باقر الخونساري في روضات الجنّات:- (كان فائقاً على من تقدّمه من الحكماء الباذخين، والعلماء الراسخين إلى زمن مولانا نصير الدين الطوسي، منقّحاً أساس الإشراق والمشّاء بما لا مزيد عليه)، وقال الشيخ محمّد رضا المظفّر :(بالغ في تصوير آرائه باختلاف العبارات والتكرار، حسبما أوتي من مقدرة بيانية، وحسبما يسعه موضوعه من أدائه بالألفاظ، وهو كاتب موهوب لعلّه لم نعهد له نظيراً في عصره وفي غير عصره من أمثاله من الحكماء، وإذا كان أُستاذه الجليل السيّد الداماد يسمى أمير البيان، فإنّ تلميذه ناف عليه وكان أكثر منه براعة وتمكّناً من البيان السهل)، وقال الشيخ محمّد حسين الأصفهاني:(لو أعلم أحداً يفهم أسرار كتاب الأسفار لشددت إليه الرحال للتَّلمذة عليه وإن كان في أقصى الديار). (ويكيبيديا الموسوعة الحرة)

كانت للشيرازي جولات فكرية تناولت مواضيع كثيرة، ومن بين الأفكار البارزة التي طرحها، نستطيع أن نحدد نظريتين بارزتين هامتين جداً أثارتا حواراً فكرياً كبيراً، وكانتا سبب هجوم رجال الدين عليه، وهاتان النظريتان هما: نظرية «وحدة الوجود» و التي تتلخص في العنوان «موجودات متعدّدة متكثّرة في الخارج،ولها حقيقة عينية واحدة، فالوجود واحد والموجود متعدّد». وهي النظرية التي جعلت العلماء والفقهاء ورجال الدين بعامة يثورون ضده فلعنوه وكفروه و ألبوا الناس ضده، وكان هذا سبب عزلته، أما النظرية الثانية هي نظرية «الحركة الجوهرية» وضع فيها رسالة أسماها «رسالة الحركة الجوهرية». و التي تعد الأساس لمبدأ التحوّل والتطوّر، ولنظرية النشوء والارتقاء التي قال بها (دارون) بعد نحو مائتي عام، وأراد أن يتخذها برهاناً على إثبات الصانع، ودليلاً على حدوث العالم، وهي الحركة الذاتية التي تتمتع بها ذرات المادة، التي تتحرك على نفسها وعلى نواتها في نظام منسّق، وتتألف منها مجموعة كالمجموعة الشمسية، تسير بسرعة فائقة، إذ تعد البداية للنظريات الحديثة في الذّرة .

إضافة إلى هاتين النظريتين فقد تناول الشيرازي في كتبه ورسائله موضوعات فكرية كثيرة، منها ما يتعلق بمعرفة المبدأ الأول وصفاته وآثاره، والذي هو جانب كبير من الفلسفة بمعناها الشامل، ومعرفة المعاد، وأحوال الواصلين إليه تعالى وإلى دار رحمته، ومعرفة المبعوثين من عند الله تعالى لدعوة الخلق، ولنجاة النفس، كالأنبياء والأوصياء وحتى الأولياء عنده .

3- نظرية الوجود:

الأنطولوجية Ontology أو علم الوجود، أحد مباحث الفلسفة، وهو العلم الذي يدرس الوجود بذاته، الوجود بما هو موجود، مستقلاً عن أشكاله الخاصة، ويُعنى بالأمور العامة التي لا تختص بقسم من أقسام الوجود، الواجب والجوهر والعرض، بل تعمم على جميع الموجودات من حيث هي كذلك، وبهذا المعنى فإن علم الوجود معادل للميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة

المجلد:16 العدد:2 السنة: 2021 صفحات المقال: 14 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

métaphysique. فهو نسق من التعريفات الكلية التأملية في نظرية الوجود عامة. وكان أرسطو في القرن الرابع ق.م، أول من أدخل مفهوماً عن مثل هذه النظرية التي عنى بها العلم حول أعم قوانين الوجود "علم الوجود بما هو موجود"، جعل لمبحث الوجود قسما خاصا ضمن الإلهيات ويكون بذلك من الأوائل الذين قدموا تصنيفا وترتيبا منهجيا للمعارف والعلوم بحسب الغاية التي تنتهي اليها، حيث قسم الحكمة الى نظرية وعملية، وضمن مباحث العلم النظري يدخل مبحث الوجود، الذي عده أرسطو أشرف العلوم، والوجود من حيث مفهومه ودلالته اللغوية والاصطلاحية قد يؤخذ على عدة معان، فالوجود هو "كون الشيء حاصلا في التجربة حصولا فعليا فيكون موضوع ادراك حسي أو وجداني، وإما حصولا تصوريا فيكون موضوع استدلال عقلي"(جميل صليبا (1982 ،(ص558 ، (.بمعنى أن الوجود نوعين، الأول وجود عيني محسوس كوجود الأجسام المادية، والثاني وجود ذهني متخيل كوجود النفس والروح والعقل.

يعود مصطلح الأنطولوجية إلى أصل يوناني من onto وتعني الوجود، و logie أي العلم. وقد ورد هذا المصطلح أول مرة سنة 1613، في القاموس الذي ألفه رودولف گوكلنيوس Rudolf Goclenius. وأول من استخدم هذا المصطلح عنواناً لكتاب هو كريستيان فون وولف hristian Von Wolff (1679-1754)، في القرن الثامن عشر. ولا تكمن صعوبة تحديد مجال الأنطولوجية في حداثة المصطلح وحدها وإنما ترجع إلى الشكوك التي ترافق كلمة الوجود منذ أن استخدمها پرمنيدس Parménide وقد حاول أفلاطون أن يبحث عن الوجود الثابت والخالد في المُثُل ideas، مضحياً بالوجود الحسي المتغير والزائل. ومع أن أرسطو لم يوافق أفلاطون على التجريد الذي تتصف به المُثُل فإنه ربط كأستاذه الوجود بالمعرفة، بل أصبح تعريف الوجود لديه مدخلاً لكل علم ممكن .

وإلى جانب الصعوبات اللغوية التي تثيرها كلمة الوجود في اللغة اليونانية وكذلك في اللغة اللاتينية واللغات الأوربية، فإن مفهوم الوجود ومعناه يثيران مع تقدم العلم إشكالات جديدة. ويذهب بول ريكور إلى عَدّ السؤال المنصبّ على الوجود سؤالاً متجدداً، ينهل من معين لا ينضب، لأن السؤال يظل أبداً أكبر من كل الإجابات .

نجت فلسفة أفلاطون من مشكلة التفريق بين الوجود والماهية essence التي ابتكرها أرسطو لاحقاً، وقد ورث الفلاسفة العرب المسلمون هذه المشكلة، مشكلة أصالة الماهية والوجود، عن الفلسفة اليونانية، وخضعت لها فيما بعد الفلسفة الوسيطة في الغرب اللاتيني .في البداية، لاحظ أرسطو أن «الوجود يقال على أنحاء متفرقة»، واضطر إلى التفريق بين الوجود والماهية للوصول إلى ما هو «جوهر» في الأشياء وما هو »عرض». كذلك فرق بين الوجود بالفعل وبين الوجود بالقوة، وتوصل إلى أن الفلسفة الأولى هي التي تتناول بالدراسة «الجواهر المفارقة للمادة»، وأعلى أنواعها الجوهر الأول، الله .

وأهم الصعوبات التي تعرضت لها الأنطولوجية في الحقبة اليونانية تعود إلى الاستخدام غير الدقيق لفعل الكون .être فمنذ أن وضع أرسطو فعل الكون في كل مكان (بدلاً من أي فعل)،

المجلد:16 العدد:2 السنة: 2021 صفحات المقال: 14 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

اضطر المناطقة إلى التفرقة بين وظيفة فعل الكون بوصفه رابطة منطقية من جهة وبين المعاني اللغوية العادية من جهة أخرى. فقد رأى كانت في القرن الثامن عشر أن هناك نوعين من استخدام فعل الكون، فإضافة إلى استخدامه رابطة يمكن استخدامه «محمولاً predicate «كذلك فرق لالاند Lalande حديثاً بين معنى مطلق لفعل الكون وبين معنى نسبي، ولكن هذا لم يمنع الفلسفة من استخدام فعل الكون .

4- الوجود في الفلسفة العربية ـ الإسلامية:

إن مصطلح «الوجود» طارئ على الفكر العربي الإسلامي، ذلك أن فعل "الكون" غير موجود في اللغة العربية كما هي الحال في اللغات الهندية الأوربية. وقد شاع استخدام «الوجود» ومشتقاته في علم الكلام. لذلك ظهرت لدى الكندي محاولة لاشتقاق كلمة من أصل عربي لترجمة كلمة الوجود هي «الأيس» مقابل «الليس» وهو العدم. ومع الفارابي دخل مصطلح الوجود بقوة إلى الفلسفة العربية ـ الإسلامية، وترسخ فيما بعد مع ابن سينا، حتى شاع وانتشر وأصبح في كتب المتكلمين، من أمثال الجويني في كتابه «الإرشاد»، مرادفاً للفظ الجلالة الله .

طرح الفارابي المشكلات الأساسية للأنطولوجية حين عالج في كتابه «الحروف» الكيفية التي يمكن بها تجاوز الصعوبات التي نشأت في الفلسفة اليونانية حول مشكلة الوجود. وكانت «نظرية الفيض» التي اقتبس مبادئها من أفلوطين تتويجاً لهذا المشروع الأنطولوجي الذي حل به العلاقة بين الواحد والكثير :الوجود المطلق والعالم المتغير. وقامت العقول المفارقة للمادة بردم الهوة بين المطلق والنسبي .

بلغت العلوم الفلسفية والكلامية ذروتها في عصر ابن سينا الذي انطوت مؤلفاته على أعظم الإسهامات في تطوير الفكر في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد وخصص ابن سينا في كتابه «الشفاء» فصولاً كثيرة لدراسة «الإلهيات«، وهي الدراسة التي أثرت تأثيراً حاسماً في تطور مستقبل الأنطولوجية في الفكر الفلسفي والكلامي عند المسلمين وعند المسيحيين اللاتين في الغرب. ومن أشهر المشكلات التي توارثها الفلاسفة شرقاً وغرباً مشكلة العلاقة بين الوجود والماهية، فبتأثيرٍ من أرسطو جعل ابن سينا للماهية منزلة أعلى من منزلة الوجود في نظامه الفكري. ويدرك المرء وفق تصور ابن سينا، ماهية المثلث دونما حاجة إلى تحققه في الخارج. فإذا حصل أمام المرء شكل هندسي أو صورة حسية تجسده، فهذا يعني أن هذا الوجود المضاف إليه زائد على الماهية. وينفي ابن سينا على مستوى وجود الله أو «الواجب الوجود» أن تسبق الماهية الوجود، ذلك أن هذه القسمة لا تصح إلا على الموجودات المحسوسة، أما على صعيد الذات الإلهية فالوجود عين الماهية .ظل رأي ابن سينا في أفضلية الماهية على الوجود سائداً، وناقضه في ذلك الأشاعرة الذين وحدوا بين الوجود والماهية .

المجلد:16 العدد:2 السنة: 2021 صفحات المقال: 14 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وقد انتقلت مشكلة الوجود من ميدان الفلسفة وعلم الكلام إلى ميدان التصوف منذ القرن الثالث للهجرة مع الحلاج والجنيد. وتعززت هذه المشكلة مع النفري من صوفية القرن الرابع للهجرة، إلا أن «الوجود» ظل في هذه المرحلة مرتبطاً بفكرة «الوجد» الصوفي. ويُلحظ عند ابن عربي، في القرن السادس ـ السابع للهجرة، ولادة أنطولوجية جديدة قائمة على الجمع بين العقل الفلسفي والذوق أو الكشف الصوفي .وفرّق صدر الدين الشيرازي في القرن الحادي عشر للهجرة بين «الحصول» العقلاني و«الحضور» الصوفي متابعاً ابن عربي. وتحت تأثير ابن عربي خطا صدر الدين الشيرازي خطوةً جريئةً على صعيد الأنطولوجية، فقال بـ «أصالة» الوجود، أي أسبقية الوجود وتعاليه على الماهية.

5- نظرية الوجود عند الشيرازي :

جعل صدر الدين الشيرازي من إشكالية الوجود محور فلسفته و انشغالاته الفكرية الفلسفية، على اعتبار أن الوجود هو أشرف الأشياء كونه أعم الأشياء. والأعم لا يعرف، إذ مقتضى التعريف أن يكون المعرف به أعم من المعرف فالتعريف منطقيا، يتم بالحد والرسم، التعريف بالحد يعني التعريف بجميع ذاتيات المعرف، وهذا يتم بالجنس والفصل، في حالة التعريف بالرسم، لا نخرج عن هذا الاقتضاء، لأن التعريف بالرسم التام، وهو رتبة أعلى من الرسم الناقص -أضعف التعاريف ـ يشتمل على التعريف بالجنس، بالإضافة إلى الخاصة، ونلاحظ أن التعريفين كليهما لا يستغنيان عن الجنس والفصل، فالتعريف لا يتم إلا بهما، أو بالعرض العام والعرض الخاص، والوجود لا شيء أعم منه. فهو غير ذي جنس ولا فصل. فلا يعرف بغيره .على هذا الأساس يقرر ملا صدرا: (فمن رام بيان الوجود بأشياء أظهر منه، فقد أخطأ خطأ فاحشا. ولما لم يكن للوجود حد فلا برهان عليه..)، فمفهوم الوجود إذن من أعرف الأشياء وكنهه محتجب، حيث يمنعه ظهوره من التعريف، من خلال معرف هو أدنى منه. (إدريس هاني، 2007)

لقد جعل صدر الدين الشيرازي من الفلسفة وسيلة شريفة تحمل الإنسان في مراتب الوجود من الجهل إلى العلم ومن الباطل إلى الحق، فبالعقل يدرك الإنسان الباري وفق منهج برهاني ، وهي غاية الوجود عند الشيرازي الذي يقول: "اعلم أن الفلسفة استكمال النفس الإنسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ما هي عليها والحكم بوجودها تحقيقا للبراهين لا أخذا بالظن والتقليد، بقدر الوسع الإنساني، وإن شئت قلت نظم العالم نظما عقليا على حسب الطاقة البشرية ليحصل التشبه بالباري تعالى" (صدر الدين الشيرازي، 1990 ص20)

وقد قسم الحكمة إلى قسمين: حكمة نظرية، وحكمة عملية، تبعا لطبيعة الإنسان الذي يظهر هو الأخر في صورتين، صورة معنوية وأخرى حسية، وعليه تنقسم الحكمة باعتبارها علم شريف وهو مقصد العارفين والعالمين، إلى قسمين : حكمة نظرية و أخرى عملية، فأما الأولى فغايتها تشبه النفس بصورة الوجود على نظامه بكماله وتمامه، وصيرورتها عالما عقليا مشابها للعالم العيني لا في المادة بل في صورته، "وفي الحقيقة فإن معرفة الأشياء وغاياتها وعللها الأولى هو ديدن العارفين والعالمين" (صدر الدين الشيرازي 1990،ص21)

المجلد:16 العدد:2 السنة: 2021 صفحات المقال: 14 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

فمطلق الوجود هو موضوع الفلسفة، وهي الفلسفة تقوم على فكرة أصالة الوجود، مقابل فكرة أصالة الماهية، من الوجهة الميتافيزيقية، وعلى فكرة الحركة الجوهرية، من الوجهة الطبيعية (الفيزيقية) أو الفيزيائية، فالفلسفة ـ عند الشيرازي ـ في تعريفها، هي استكمال النفس الإنسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ما هي عليها، والحكم بوجودها تحقيقاً بالبراهين لا أخذاً بالظن والتقليد، بقدر الوسع الإنساني أو نظم العالم نظامً عقلياً على حسب الطاقة البشرية" **(الشيرازي، 2011م/1432ه)**، فالعلم الإلاهي إذن هو موضوع الفلسفة الشيرازية، و التي مفادها أولوية الوجود على الماهية، أو القول بأصالة الوجود، فالوجود في رأيه لا سبب له و هو سبب كل شيء، أولى بالموجودات و متقدم عليها، فوجود الجوهر متقدم على العرض، فللوجود حقيقة عينية لا مجال للتشكيك في أصالته إذ لا يمكن أن يكون الواجب لذاته متعينا محددا ومتعلقا بغيره، بمعنى أنه إذا كانت كل الموجودات تتدرج تحت الوجود، فهي إذن كلها إنما هي أقل بيانا منه ولذلك كان الوجود أظهر منها جميعا، " والوجود هو الوجود عينه، الموجود بذاته، وهو الوجود الذي تقع عليه الوطأة بفعل الكون «كان» واسم الكون (الموجود) والفارسية "هست"، وهو الوجود العيني المتحقق في ههنا الوجود". (نديمة عيتاني، 2016، ص 320)، فالوجود ههنا: هو الوجود الذي تقع عليه الوطأة بكلمة "هست" الفارسية أو "هذا الوجود، ههناً"، فمسلك البحث عند الشيرازي يقوم على مبدأ الجمع بين الحكمة و العرفان وتغليب طريقة الفلسفة الإلهية والحكمة المتعالية، فالوجود عنده هو الوجود عينه، و الماهية متحددة بالوجود، بعيدا عن فكرة الوجود بالفعل و الوجود بالقوة الأرسطي، على اعتبار أن الماهية ليست معروضة له ولا عارضة، وما يقابل الوجود عنده هو العدم لا اللاموجود.

6- اعتبارية الماهية في مقابل أصالة الوجود:

كل الموجودات في العالم تحمل صفتين: صفة الوجود التي هي ضد العدم، و صفة الماهية التي تمثل امتداد هذا الوجود أو ما نسميه الموجود، إلى هنا يبدو الأمر طبيعيا، أسبقية الوجود على الماهية أم الماهية على الوجود هو الأمر الذي يجب أن نتساءل حوله، أكانت الماهية، ثم جاء الوجود؟ أم أن الوجود هو منشأ الماهية؟ هذا هو الأمر الذي اختلف فيه المحققون و الفلاسفة و العرفانيون، بمعنى قضية الأصالة لمن تعود؟ لقد ذهب ابن سينا إلى القول بأصالة الوجود، و أنه منشأ كل ماهية، و سابق عنها، وهو القول الذي أخذ به فيما بعد الملا صدر الدين الشيرازي، و جعل منه أساسا لنظرته الفلسفية حول الوجود، وحجر الزاوية في فلسفته المتعالية، هذا رغم أنه دافع قبل ذلك على أصالة الماهية في وقت سابق لكنه تراجع عن ذلك إلى القول باعتبارية الماهية في مقابل أصالة الوجود، فالوجود برأيه لا سبب له، وهو أولى بالموجودية من غيره، وهو متقدم على جميع الموجودات بالطبع، وكذا وجود كل واحد من العقول الفعالة على وجود تاليه، ووجود الجوهر، المتقدم على العرض، في وحدة الجوهر والعرض في ههنا الوجود الآني، وقد أدلى بذلك صراحة بعد تراجعه عن موقفه السابق قائلا:"وإني كنت شديد الذَّبِ عنهم (يقصد عن مقولة الاشراقيين) في اعتبارية الوجود وتأصيل الماهيات، حتى أن هداني ربي وانكشف لي انكشافا بينا أن الأمر بعكس ذلك، وهو أن الوجودات هي الحقائق المتأصلة الواقعة في العين، وأن الماهيات المعبر عنها في عرف طائفة من أهل الكشف واليقين بالأعيان الثابتة ما شمت رائحة الوجود أبدا"(عادل محمود بدر، 2006، ص86).

وقد أفرد الشيرازي جملة من الحجج و البراهين العقلية التي تثبت أصالة الوجود و اعتبارية الماهية ،

أولا: الماهية من حيث هي هي، متساوية بالنسبة للوجود أو للعدم، فإذا كانت الماهية أصل الوجود، فإنه يستحيل عليها العدم، بمعنى أن الوجود هو الذي يعطي الماهية وجودا، وبالتالي يكون الوجود أصيلا، بعبارة أخرى: "إن الخروج عن حد الاستواء بين الوجود والعدم لا يكون الا بواسطة الوجود، لأن الماهية من حيث هي ليست إلا هي وكانت بذاتها متساوية النسبة إلى الوجود والعدم، ولو كان الوجود اعتباريا فما المخرج لها (للماهية) عن الاستواء وبم صارت مستحقة لحمل موجود، فإن ضم معدوم إلى معدوم لا يصير مناط الموجودية " (رزيق رابح ، بن عومر رزقي، 2018، ص 315-316)

ثانيا: تقتضي الضرورة العقلية التفرقة بين الوجود العيني و الوجود الذهني فإذا افترضنا الوجود اعتباريا والماهية هي الأصل، فإن ذلك سيساوي بين الوجودين في عالم الواقع، فإدراك الشيء يتبعه ارتسام صورة الشيء في الذهن، فإذا كان الأصيل ومنشأ الآثار هو الماهية يلزم عندئذ أن تكون آثار الماهية الخارجية عين آثارها الذهنية!" (مطهري، 2011، ص 40)

بمعنى أنه لو كانت الماهية أصيلة لنتج عن ذلك أن تلك الآثار المترتبة عن الماهية هي عينها في الذهن وفي الواقع الخارجي، فالألم المتسبب بفعل البرد مثلا يكون في الخراوج فقط أي على مستوى الجسم لا على مستوى الذهن فالذهن لا يتأثر بتلك البرودة، ترتب عن ذلك استحالة أن تكون الأصالة للماهية، وعلى ذلك بقي أن تكون الأصالة للوجود.

7- وجود الله و العالم في فلسفة الشيرازي:

ينطلق الشيرازي في إثبات وجود الله من تقسيم الوجود إلى ثلاث، واجب الوجود، وممكن الوجود، وممتنع الوجود، على اعتبار أن كل مفهوم، إما أن يكون واجبا أو ممكنا أو ممتنعا، أما واجب الوجود فهو حقيقة الوجود كله،لا يشوبه شيء، و أن كل شيء موجود ينتهي إلى وجوده، فواجب الوجود ينتهي إليه تسلسل الموجودات، لكنه بذاته غير متناهي في الشدة والقوة بخلاف باقي الموجودات وفي ذلك يقول الشيرازي في رسالة المشاعر: "لما علمتَ أن الواجب تعالى محض حقيقة الوجود الذي لا يشوبه شيء غير الوجود، فهذه الحقيقة لا يعتريها حد ولا نهاية، إذ لو كان له حد ونهاية كان له تحدد وتخصص بغير طبيعة الوجود، فيحتاج إلى سبب يحدده ويخصصه، فلم يكن محض حقيقة الوجود، فإذن ثبت إن واجب الوجود لا نهاية له ولا نقص يعتريه ولا قوة ولا إمكانية فيه، ولا ماهية له، ولا يشوبه عموم ولا خصوص، فلا فصل له، ولا تشخص له بغير ذاته، ولا صورة له، كما لا فاعل له ولا غاية له، كما لا نهاية له، بل هو صورة ذاته ومصور كل شيء، لأنه كمال ذاته وكمال كل شيء، لأن ذاته بالفعل من جميع الوجوه، فلا معرف له ولا كاشف له إلا هو، ولا برهان عليه فشهد ذاته على ذاته وعلى وحدانية ذاته، كما قال: [شهد الله أنه لا اله إلا هو]"(**صدر الدين الشيرازي (2002 ،ص127 .).**

لا ماهية له سوى وجوده، و هو الله تعالى، انيته تعالى هي عين ماهيته، بمعنى أنه لا ماهية له سوى الوجود الخاص المجرد عن مقارنة الماهية بخلاف الممكن كالإنسان مثلا فإن له ماهية كونه حيوان ناطق، ووجود وهو كونه في الأعيان، فإن الواجب تعالى صرف الوجود ومحض الذات فلا يكون في الواجب وجود وماهية.

المجلد:16 العدد:2 السنة: 2021 صفحات المقال: 14 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

أما وجود العالم فلم يخرج الشيرازي عن قول الفلاسفة ممن سبقوه، و المتكلمين منهم،و الدفاع عنهم في القول بحدوث العالم لا قدمه، و القول بالفيض الإلهي حيث في ذلك يقول الشيرازي: "ان القوة الالهية لم تقف ولا تقف عند ذاتها من غير أن يفيض على ما دونها من الأشياء، فيضانا دائما لكونها غير متناهية في الشدة والمدة والعدة... أفاض أولا على العقل وصوره على مثاله قبل أن يفيض على غيره... ولما كان العقل أيضا تاما كاملا بعد الأول... أفاض من نوره وقوته على النفس، وكذلك لما امتلأت نورا وقوة وغيرها من الفضائل والخيرات ...أفاضت من نورها و فضائلها على ما تحتها... فملأت العالم من نورها وبهائها وحسنها من صور الأنواع وطبائع الجسمانيات، كالأفلاك والكواكب والحيوانات والنبات والمعادن ... فالطبيعة راجعة إلى النفس والنفس راجعة إلى العقل والعقل راجع إلى الواحد القهار" (بسام مرتضى، 1998 ص 21).

8- الشيرازي و الوجودية الغربية:

يعد الشيرازي أب الوجودية بلا منازع، مؤسس الفلسفة الوجودية الحديثة، وهي فلسفة تقوم على فكرة أصالة الوجود، في مقابل فكرة أصالة الماهية، فقد سبق الفلسفة الشخصانية في القول ب(الإنسان الكامل)، الفلسفة التي تعتبر الشخص هو الفرد في كليته، مجموع العقل و الروح و الجسد، و هو الكائن في علاقة الكينونة الكبرى، عندما قال بوحداوية واجب الوجود، لا كنوع منحصر في شخصه، بل وجوده هو غير وجوده في مرتبة وجوده(الحق مقابل الخلق)، كما أنه سبق برغسون لفكرة الديمومة، أو نظرية الحدوث الدائم، أو الخلق المستمر (سيلان الوجود)، أي أن أفعال الله قديمة متجددة متتابعة متلاحقة، أخرها لاحق لأولها أولها سابق لأخرها .

كما تقدم على معاصره ديكارت في مسألة الكوجيتو، فبدلا من أسبقية الفكر على الوجود(أنا أفكر إذن أنا موجود)، قدم الشيرازي مبدأ الإنية باعتبارها إنية موجودة (أنا موجود إذن أنا أفكر)، وبما أن الإنية هي الذاتية المفكرة فإن الشيرازي يكون قد سبق كيركيجارد في مسألة الذاتية التراجيدية، و في اكتشاف مفهوم الذات و الذاتية. (نديمة عيتاي، 2016، ص321) .

كما أن لمصطلح هيدغر في (الوجود و الزمان) (الدازاين)أو الوجود ههنا- الأن، خلفية معرفية و اصطلاحية في (كتاب المشاعر)، ههنا الوجود أو الوجود العيني المتحقق في ههنا الوجود(الأسفار الأربعة)، كما سبق نيتشه في تحديد الوجود بالعدم، في أولوية الوجود بالعلاقة بالعدم كعنصر من عناصر الوجود، لو لم يكن الوجود موجودا، لم يوجد شيء من الأشياء، وقوله بالحكمة المتعالية نجده عند كانط في قوله بالعقل المحض .

9- خاتمة:

تعد جهود صدر الدين الشيرازي في مبحث الوجود إضافة فريدة وحلقة متميزة في تاريخ الفكر الإنساني برمته، ونقلة كبيرة في مفهوم الوجود شكلت أساس الوجودية المعاصرة، على اختلاف توجهاتها و مشاربها، ومسألة فريدة تدور حولها المسائل لما تحمله من الجدة و الإبداع، كما يعد الشيرازي رائد الفلسفة المتعالية بلا منازع بما أحدثه من انقلاب على فلسفات الماهية، على غرار سابقيه ممن يزعمون السبق لذلك.

المجلد:16 العدد:2 السنة: 2021 صفحات المقال: 14 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

المراجع:

- إدريس هاني. (23 جويلية, 2007). نظرية الوجود عند صدر المتألهين الشيرازي. *الفلسفة و الفكر* .
- أفلاطون. *المحاورات الكاملة*. (شوقي داوود متراز، المترجمون) بيروت: الأهلية للنشر و التوزيع.
- بسام مرتضى. (1998). *نظرة في الالهيات* (الإصدار الطبعة الأولى). بيروت: دار الرسول الأكرم.
- رزيق رابح ، بن عومر رزقي. (سبتمبر, 2018). في مفهوم الوجود وتطبيقاته في فلسفة صدر الدين الشيرازي. *مجلة الباحث في العلوم الإنسانية و الإجتماعية* (35)، صفحة 304.
- صدر الدين الشيرازي. (1990). *الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة ج1*. بيروت: دار احياء التراث.
- صدر الدين محمد الشريازي. (2011م/1432ه). *الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة* (الإصدار 4). دار المحجة البيضاء.
- عادل محمود بدر. (2006). *برهان الامكان والوجوب بين ابن سينا وصدر الدين الشيرازي* (الإصدار الأولى). دمشق: دار الحوار للنشر.

مرتضى مطهري. (2011). *الفلسفة* (الإصدار الطبعة الثانية). (تر: حسن علي الهاشمي، المترجمون) بيروت: دار الولاء.

نديمة عيتاي. (2016). هل تأثر هايدغر بالشيرازي.. وكيف؟ *الاستغراب* ، 320.

ويكيبيديا الموسوعة الحرة.